حاجتنا إلى التلقيح

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

السنة الثانية - العدد 11 - الخميس 24 ربيع الآخر عام 1357 الموافق 23 يونيه سنة 1938

كما أن لا غنى للحياة النباتية عن تلقيح إذ أن تطاول السنين يورثها شبه عطل في إنتاجها، فإذا تلقحت فسيلة بأخرى تقوت الجذور وكانت الفاكهة أثمر ما يكون، كذلك لا غنى للأمم عن اتصال بعضها ببعض، واحتكاك قوي بينها، واقتباس كل واحدة من الأخرى تجاريبها في الحياة التي هى المعرفة الإنسانية في جميع مظاهرها، فإذا تأخرت أمة عن ذلك الاتصال واغتنت بنفسها عن الاحتكاك بأمم الأرض الأخرى أصابها عطب في جماعاتها وتأخرت درجات في سلم الحضارة، وأخذت تسير إلى الوراء وتنحدر في هوة من الخمول، وتلقي بينها وبين الوجود الحقيقي أستارا كثيفة تضعها في ظلام دامس، وتصبح جميع مجهوداتها تتعثر في ليل بهيم. ولعل أمتنا المغربية خير مثال يقدم لذلك، ويكون من دراساته الدواعي الحقيقية لتأخر أمة انعزلت في بقعة من الأرض، وقطعت ما بينها وبين الأمم الأخرى من أسباب، ونسيت نفسها بين حدودها، وغفلت عما يجري في العالم الخارجي والمجاور لها من حوادث وانقلابات وتطورات وما يؤدي ذلك كله إلى صراع يقوى به ساعد الحضارة، وتلقح بمجموعه جذور المدنية بين الأمم.

فعندما أخذ الغرب يزيح عن عينيه غشاوة عصوره المظلمة، أخذت حيويتنا تخمد، وبدأت عزلتنا تقوى، فكان كلما تقدمت أوربا خطوة إلى الأمام تأخرت أمتنا خطوة إلى الوراء، وعندما فوجئنا بالمدنية العصرية كان الفرق عظيما بيننا وبينها، وكانت المسافة لا

تقطع بيننا وبينها في أيام ولا شهور بل في سنوات عديدة، وتتطلب من المجهودات ما يجب أن تتظافر عليه أجيال وأجيال. ولكن مهما بذلت تلك الأجيال من مجهودات وسعت لتتطور وتخرج من نطاقها الضيق، فإن ذلك لن يكون ذات نتيجة ناجحة إذا لم نبادر إلى الدواء دون مماطلة ودون التواء؛ فلقد كان سبب تأخرنا في مضمار الحضارة البشرية بعد أن حملنا رايتها قرونا وقرونا أن أوصدنا الباب وعشنا في عزلة عن بقية أمم العالم، فأصاب إنتاجنا المادي والمعنوي ركود، وتلاشت قوتنا من الوجود في أمد وجيز؛ واليوم إذا كنا حقا أدركنا حقيقة موقفنا في عالم التأخر والجمود، فإن الدواء الوحيد الناجع لبث روح العمل وتجديد نشاطنا هو أن نسعى في تلقيح حياتنا، فنختلط بالأمم المتمدنة أتما اختلاط لنقتبس منها أسباب الرقي العصري، وننفض عنا غبار الجمود التي اثقلت كاهلنا، وأوقفت سريان الدم في عروقنا. وهذا الاختلاط المرجو والتلقيح المنشود لا يتاح لجماعات الأمة كلها، فانتقالها عسير وتلقينها روح العصر أعسر، فهو لا يتم إلا على يد طائفة فتية من الأمة تستطيع أن تفتح قلبها لمدنية العصر وتهضم مقوياتها لتحاكيها أولا وتبدع فيها ثانيا. تلك الطائفة هى الشباب في دوره التعليمي إذ يكون قوى الفهم، سريع التأثر، مستعدا بطبع اتجاهاته بطابع جديد، فبواسطتها تلقح حياة الأمة، وإن التعليم وحده لا يؤدي وظيفة ذلك التلقيح خير أداء، بل إنه يظل معلومات تحشر في الذاكرة إذ لم تكن هناك تربية عملية للاستفادة من تلك المعلومات واستغلالها لخير المجموع وتربية الأمة على طرق جديدة من الحياة؛ فإن الشباب مهما درس ومهما ثقف إذا لم يغادر بلاده المتأخرة الجامدة يظل ناقصا في ميدان العمل، فهو لا يستكمل نضوجه بين جماعات يسودها الخمول إذ ليس بينها مثل تقتدى، وليست في اتجاه صحيح يحتذى، والإنسان بطبعه لا يبتدع دائما ولا يكتشف الطريق الأصوب في كل ميدان دخله مهما اتسعت معرفته، ومهما نمت خبرته، بل لا غنى له عن مشاهدة شريط الحياة عند الأمم الأخرى ليقتبس. فالطريق الوحيد لنجاة الأمة المغربية من ويلات التأخر ولإنقاذها من وهدة الخمول والجمود أن

تهتم بإرسال بعثات لتتعلم في الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة واليقظة ولتشاهد من صور حياتها ما يحفز إلى الثورة على حياتنا الذابلة المتلاشية.

وقديما فكر في ذلك أحد ملوك المغرب العظام مولاى الحسن وأدرك بفكره الثاقب أية فائدة عظيمة للبعثات وأية قيمة خطيرة لها في حياة أمة عزلت نفسها عن أمم المعمور فانحطت، فنظم بعثات، ولكن جمود الوسط إذاك كان أصلب من أن يتأثر بواسطة تلك البعثات، فظلت مهجورة ونسيت بعد قليل من رجوعها. كان ذلك منذ خمسين سنة؛ أما اليوم وقد احتككنا بالحياة الجديدة وشاهدناها فاغرة فاها لابتلاعنا، أفنظل في جمودنا بينما جميع الأمم التي نرتبط معها في اللغة والدين والاتجاه سارعت إلى تلقيح حياتها، فهى ترسل إلى أوربا البعثة تلو البعثة، وهى مجدة في تنوع تلك البعثات والاستفادة بواسطتها من جميع النواحي اللامعة من حياة الغرب. لذلك فيجب أن نومن إيمانا راسخا ألا تكون نهضة للمغرب ولا تقدم لبنيه إذا لم نلقح حياتنا تلقيحا جديدا. ولن يكون ذلك التلقيح إلا إذا أرسلنا مئات الطلبة إلى معاهد الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة العصرية يتعلمون ويتلقون الحياة في أبهى صورها وأنشط مظاهرها.